تفسير كتاب مقدّس

رسالة القدّيس يعقوب (الإصحاح الرابع)

مع الأب ابراهيم سعد

في كنيسة الصليب – رعيت

2014/11/ 15

نتكلم اليوم، على جزء من رسالة يعقوب الرّسول، يتحدّث فيه عن الأوضاع الّتي نعيشها في العالم، والّتي تنطبق علينا، لأنّنا إذا أردنا أن نحلّل الخلافات والخصومات الموجودة بين الناس، سنرى أنّها تحصل بسبب النَّفْس الموجودة داخل كلّ إنسان.

يسأل يعقوب الرّسول: **"من أين الحروب والخصومات بينكم، أليست من هنا، من لذّاتكم المحارِبة في أعضائكم، تشتهون ولستم تمتلكون، تقتلون وتحسدون ولستم تقدرون أن تنالوا، تخاصمون وتحاربون ولستم تمتلكون، لأنّكم لا تطلبون، تطلبون ولستم تأخذون، لأنّكم تطلبون رديئاً لكي تُنفقوا في لذاتكم، أما تعلمون أنّ محبّة العالم عدالة الله؟ فمَن أراد أن يكون مُحبّاً للعالم فقد صار عدوّاً لله، أم تظنّون أنّ الكتاب يكون باطلاً، الرّوح الّذي حلّ فينا يشتاقُ إلى الجسد، ولكنّه يعطي نعمةً أعظم، لذلك يقول: يقاوم الله المستكبرين وأمّا المتواضعون فيعطيهم نعمةً، فاخضعوا لله، قاوموا إبليس فيهرب منكم، اقتربوا إلى الله فيقترب إليكم، نقّوا أيديكم يا أيها الخَطأة، طهّروا قلبوكم يا ذوي الرأيَيْن، اكتئبوا ونوحوا وابكوا ليتحوّل ضحِكُكُم إلى نوح، وفرحُكُم إلى غمّ. اتضعوا قدّام الرّبّ فيرفعكم. لا يذمّ بعضكم بعضاً أيّها الأخوة، الّذي يذمّ أخاه ويدين أخاه، يذمّ النّاموس ويدين النّاموس. وإن كنتَ تدين النّاموس فلستَ عابداً للنّاموس، بل ديّاناً له. واحدٌ هو واضع النّاموس القادر أن يُخلّص والقادر أن يُهْلِك، فمَن أنتَ يا من تدين غيرك.** (يع 4:1-12).

في عصرنا هذا، الدّنيا كلّها مرتبطة بأهواء ومصالح وشهوات وحسابات، لذلك يزداد عدد المتكبّرين ويتضاءل عدد المتواضعين، لأنّ هَمَّ المتكبّرين هو أنفسهم، وهذا يفرض على الإنسان أن يسحق مَن حوله ويُلغيه ويُهينه. ولكن ، بحسب قانون يعقوب الرّسول، نحن في أزمة؛ وهذه الأزمة تحتاج إلى تحوّلٍ داخليّ. والتّحول الأوّل هو أن يصبح واضع النّاموس والشّريعة هو الحاكم. ولكنّنا للأسف نُبعِد الله ونحكم نحن في الأمور الصّغيرة والكبيرة، نحكم شخصًا واحدًا أو مجموعة. وأعتقد أنّه يجب على النّاس أن يتعلّموا طريق القداسة ببساطة.

إذا أراد شخصٌ ما تمرينَ نفسه على ضبط لسانه، والتّكلّم أقلّ ممّا يسمع ، وضبط حواسه وسمعه وأن يعتاد على عدم إدانة النّاس والظّنّ سوءًا بهم، فهذه هي قداسة هذا العصر. ليس المطلوب صنع العجائب ، إنما أُناسًا لا يظنّون سوءًا بالآخرين ، ولا يدينون بعضهم

البعض، لأنّ الناس يذمّون بعضهم بعضًا بسبب الظّنّ السّيّئ. عندما تظنّ سوءًا، تذمّ الآخر، فلا تُعطي رأيك فيه فقط، بل تُساعد جميع من حولك من الّذين يستمعون إليك على أن يصبحوا أعداء لهذا الشخص، فتقوم بعزله والعزلة هي الموت. لذلك إذا ارتكب شخصٌ ما خطيئةً وتكاثرنا عليه في الإدانة، نكون حينها قد قطعنا عليه طريق العودة إلى الله وإمكانيّة التّوبة .فالسبب الأهم، والدافع لأن يتوب الإنسان هو أن يشعر بحبّ الآخر ؛ لكنّنا، للأسف، نجعل أنفسنا آلهةً على هذا الشّخص. من هنا تولد الحروب والنّزاعات في ما بيننا، لأنّ لذّتنا ومصلحتنا وأهواءنا أصبحت تتقدّم على كلمة الله ورأيه، فيُصبح لدينا رأيَيْن اثنين لا علاقة لله بأيٍّ منهما؛ فنتبنّى الرّأي الّذي نجد فيه مصلحتنا، ورأينا بالآخر الّذي نعاديه. أمّا الرّأي النّاتج عن فكر المسيح، فنبتعد عنه. "أمّا نحن فلنا فكر المسيح" كما يقول بولس الرّسول. وهذا الفكر استنتجه بولس الرّسول عن الإله ابن الله الّذي لم يحسب نفسه مُعادِلاً، ولم يحسب نفسه أنّه أخذ غنيمةً من عند الله، ولكنّه قام بوضع نفسه في مستوى البشر . أيّ بدل أن يأخذ حقّه بالإدانة، مع العلم أنّه هو الله وهو الّذي يُدين وهو من دون خطيئة، قام ببدل الأدوار وجعل نفسه عبدًا يدينه النّاس ويحكمون عليه. هذا ما أدّى به إلى الموت، وأبشع موت هو الموت على الصّليب، لكنّ الله رَفَعَهُ وجعله فوق.

إذًا، مشكلة الإنسان مع الإنسان الآخر، هي أنّ أحدهم لا يقبل أن يبقى على حاله ، فيريد أن يكون الله، وهذا هو سبب خراب الدنيا. عندما يعرف كلّ شخص دوره ستختفّ المشاكل والخصومات والحروب. ترَون الآن أنّهم يق تلون باسم الدّين، ليفرزوا الكافر من النّاس عن الصالح، والمرتدَّ عن الله عمَّن هو معه . لقد وضعوا أنفسهم مكان الله. عندما تُصبح مكان الله، تصبح تلقائيًّا العدوَّ، كالشّيطان. يجب أن تصير مثل الله، لا أن تضع نفسك مكانه. عندما تضع نفسك مكان الإنسان الآخر، تصبح بمثابة الله، لأنك بهذا ستتعلّم كيف ترحم وتُحبّ. المسألة إذًا، مُرتبطة بالمكان الّذي تضع نفسك فيه، وبطريقة التّحدّث.

ثمة ثلاثة أمور يجب أن نشير إليها هنا؛ أولاً، إنَّ أقرب أذنٍ إلى فمك هي أذنك، أي أنك ستكون أول مَن يسمع ما تقول. ثانيًا، خلقَ الله لك أذنَيْن اثنتين ولسانًا واحدًا، أي يجب أن تسمع ضِعف ما تتكلّم. أمّا ثالثًا، لماذا يبقى الفم مغلقًا عندما لا يكون بجانبك شخصٌ ما لتُكلّمه، بينما تبقى الأذنان مفتوحتان؟ ثمة حكمة من الله في خَلقه الإنسان على هذا الشّكل. خلقه ليسمع طوال الوقت لا أن يتكلّم طوال الوقت، لأنّك إذا كنتَ تسمع طوال الوقت ، ستحترم الّذي سيتكلّم وتفهمه، فيكون حكمك صائبًا أكثر. ولكن حين تُغلق أذنَيْك عن الذي يتكلّم وتريد أن تتكلّم لوحدك، عندها تتّخذ مكانًا آخر. لذلك تبدأ العداوة والأحكام والظّنون.

فَيعقوب الرّسول يقول إنّك لستَ بحاجةٍ إلى حريقٍ كبيرٍ لحرقِ مَبْنىً ، فعود كبريتٍ صغيرٍ يكفي لذلك. واللّسان هو ذلك العود الصّغير في الجسم، لا بل في الكون، القادر، وفي حركةٍ واحدةٍ صغيرةٍ، على أن يُحرق إنسانًا آخر بسبب كيفية التّكلّم معه أو إهانته. فهذا العضو الصّغير، أي اللسان، الذي تتكلّم بواسطته بِبَركات الله ، هو نفسه الّذي تلعن بواسطته النّاس. ذلك لأنّك تملك رأيَيْن اثنين. لذلك، لسانك هو الوحيد الّذي يتكلّم لغتيْن اثنتين: لغة البركة ، ولغة اللعنة . فكيف يمكن لنبعٍ ماءٍ أن ينبع ماءً عذبًا وماءً مالحًا في الوقت نفسه؟ ذلك غير ممكن. لماذا لسانُ الإنسان فقط قادر على فعل هذا؟ لأنّك عندما تتبنّى رأيًا معيّنًا تكون غير صادقٍ بهذا التّبنّي،

لأنّك تميل به بحسب مصالحك وأهواءك وليس بحسب مبادئك وقِيَمك. لهذا السّبب، نحن في أزمةٍ مع أنفسنا. فالإنسان غير متصالح مع نفسه. لذلك لا يستطيع أن يتصالح مع من حوله. فلو كان هؤلاء الذين يَقتلون متصالحين مع أنفسهم، لما قاموا بارتكاب هذه الأفعال، لأنّهم لم يُحَبّوا ولم يعرفوا الحبّ والرّحمة، لذلك لا يعرفون أن يِحبوا ويَرحموا. أكبر رحمة تتعلّمها هي رحمة الله، لذلك تصبح رحيمًا.

على هذا الأساس يجب أن نُعيد النّظر في حياتنا. على كلّ منّا، قبل النّوم، أن يتذكّر ما قام به خلال اليوم مع أقرب النّاس إليه، وإذا كان ثمة مشكلة، يجب أن يُحلّل ويفهم سببها، فيرى أنّ السّبب هو كلمة صادرة عنه ، عن قصدٍ أو غير قصد. أي أنّ السّبب الرّئيسيّ هو الكلام. "الدِّين مُعاملة"، أي يجب أن نُعامِل بالطريقة نفسها الّتي نتمنّى أن نُعامَل بها، وبالتالي أنتَ تعلم إلى أيّ رأيٍ تستمع ، ألا وهو رأي الله. وغير ذلك نصبح في ضياعٍ وفوضى.

في الكنيسة مثلاً، وبتعدّد وظائف الأشخاص فيها، ينشأ بينهم حسد أو غيرة أو خصام، ناتجة عن ظنون أو كلمة ما. فكلّ شخصٍ في مكانه مُحترم في عينيّ الله، وليس ثمة داعٍ لأخذ مكان شخصٍ آخر ليراك الله. لهذا قتل قايينُ أخاه هابيل، لأنّه اعتقد أنّ الله يرى هابيل فقط. الله قَبِلَ ذبيحة هابيل ليتعلّم قايين من ذلك ، لكنّ قايين لم يتعلّم ولم يفهم هدف الرّب من هذا، واعتقد أن أخ اه يأخذ مكانه، فكان الحلّ بقتل أخيه.

يسوع النّاصريّ، ابن مريم، قتلوه لأنّه يأخذ مكانهم. بولس الرّسول وبطرس لقَوْا المصير ذاته. ويوحنا الذّهبيّ الفم، قام رفاقه المطارنة بنشر شائعات عنه لأنّهم لم يجدوا سببًا مُقنِعًا ليذمّوه. بالمقابل، إنّ يوحنا الذّهبيّ الفم هو الّذي كتب نصَّ القدّاس، وكل التّفسيرات التي نقرأها ونردّدها. لم يقبلوه لأنّه يأخذ مكانهم. على ما يبدو، أنّ عقدة الإنسان هي في أنّه يحبّ أن يأخذ مكانه ومكان الآخرين؛ وقد نقع على هذا الفكر داخل البيت الواحد، أو داخل الكنيسة، أو في أيّ مكان في العالم. الفكر الصّحيح، فكر الإنجيل، هو الذّي يجعل الإنسان إنسانًا، لأنّنا الآن تحت مستوى الإنسانيّة، وعندما نصبح أشخاصًا على مستوى رضا الله، تزول الخصامات كلّها ، كما يزول القلق والاضطراب. فالعودة إلى كلمة الله، هي الدّعوة والحلّ والطّريق والنّور والحياة.

ملاحظة: دوّنتْ المحاضرة من قِبلنا بتصرّف.